

خطاب الهرمينوطيقا في الفكر الغربي: من الأسطورة إلى النظرية

د. كروم عبد الله، جامعة أدرار

• البريد الإلكتروني: kerroum197401@gmail.com

تاريخ النشر: 2018/12/26	تاريخ القبول: 2018/12/25	تاريخ الإرسال: 2018/06/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص :

يعالج هذا البحث مسألة الهرمينوطيقا أو التأويلية في الفكر الغربي، وكيف تحولت من الأسطورة المرتبطة بالآلهة، ثم تطورت لتتمر بتحويلات إبستمولوجية، حتى انتهت إلى نظرية ومنهج متبع في معالجة النصوص والخطابات بأنواعها المختلفة، وهي تعتمد في ذلك على وعي المتلقي وأفق المعرفة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب; التأويل; الهرمينوطيقا; الفكر الغربي; الأسطورة; النظرية; الهرمسية; التلقي.

Astract:

This research deals with the issue of Hermineutics or interpretation in Western thought, how it was transformed from the myth associated with the gods, and then evolved to undergo epistemological transformations, until it reached a theory and a method used in the treatment of texts and discourses of various kinds.

مقدمة

يعتبر مصطلح الهرمينوطيقا أو التأويلية من المصطلحات القديمة التي سادت بين الأمم السابقة، لأنه تابع للمعنى ولصيقه، ويدخل في سبب الخلافات والنزاعات القديمة التي تمخضت حول المعنى ومسالك الدلالة. والمعاني كالدرر أبدا لا تبقى طافية فوق السطح، بل تترسب في الأعماق، ولا بد من الغوص في قيعان النصوص للوصول إليها واستخراجها، ومن ثمت اعتبارها قراءة تاريخية تعكس شخصية صاحبها فقط، إلا أنها قراءة مستخرجة من التفاعل الداخلي مع النص بعيدا عن الإجراءات والإكراهات الخارجية التي تحمل خطايا مثقلا بالأيديولوجيا وما وراء اللغة (méta-language).

يعتقد بعض الفلاسفة أن الإنسان كائن تاريخي، أي بمعنى أنه يفهم نفسه من خلال التجارب الموضوعية للحياة، وليس من باب التأمل العقلي، وأن الإنسان ليس مشروعاً جاهزاً من قبل، ولكنه حالة تخلق، أي أنه يفهم ماضيه فهما جديداً من خلال التغييرات الواقعة له، حيث أن الإنسان يفهم ذاته من خلال التاريخ بوصفه عملية مستمرة للفهم والتأويل.

إن مصطلح الهرمينوطيقا (التأويل) قد اتسع في الفكر الحديث، والتحم فيه تأويل النصوص الدينية مع التأويل المعرفي المشكل من حقول معرفية متداخلة، ومتعددة، مثل العلوم الإنسانية كالتاريخ، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم الجمال، والنقد الأدبي، والفلكلور..

إن كل عملية تفسير عبر العصور هي ضرب من القراءة، واجتهاد ينبغي أن يستمر مع كل عصر جديد، ثم تصبح التلقيات مع الزمن تراثا لا يملك الحقيقة، بقدر ما تعتبر تلك الفهوم مستوى من المستويات القابلة للتعديل والتركيب والتحويل والتجاوز.

يحاول هذا البحث أن يرصد نشأة الفكر التأويلي في الثقافة الغربية، وكيف تطور من بدائية الأسطورة إلى وعي النظرية، ويقف عند أهم الأعلام الذين بلوروا مفهوم الهرمينوطيقا التي كسرت اليقينيّات، وهيات العقول لخلخلة القبض على المعنى والوثوقية الزائدة عن اللزوم في اللغة، فكيف نشأت الهرمينوطيقا في الغرب؟ ومن هم أهم أعلامها؟ وكيف تحولت من أسطورة إلى نظرية؟.

1- المعنى اللغوي عند العرب

إن قراءة تدبرية في المعاني اللغوية السبعة عشر لكلمة التأويل التي أوردها ابن منظور في لسان العرب¹، إنما يحيل أولاً على انفتاح مادته، وتشعب بنيته المفاهيمية، وهي تؤسس لتعدد البدائل المعرفية لمصطلح التأويل، وذلك ما يعطيه طابع المرونة والتعدد.

لعل القراءة الفاحصة والأولية، تبرز أن التأويل صفة لازمة لقضية الوجود بأكمله، فهو يتموضع في صور الأعيان قبل الوصول إلى الذات العارفة، حيث أن (للسراب و الحال آل) ، و (للخشية و الآذان آل) ، كما أن (اللبـن يؤول ، و للجبل آل هي أطرافه و نواحيه) ، مما يوحي أن قضايا الوجود يلحقها التأويل في عملية خارجة عن الوعي الإنساني، و ذلك ما يفتح التأويل على الكون و الواقع قبل النفس و عوالمها، و يمنحه دلالة على التنامي و السعة بحجم النفس و الملكوت .

و مما يستنتج أيضاً أن التأويل يفتح على الإنسان و أحواله و كل ما يتعلق بذاته و صيرورته و سيورته، ليعكس تصوره و تمثلاته للحياة، بدءاً من ذاته الوجودية وصولاً إلى أهله و عشيرته .

¹ لسان العرب، أبو الفضل جال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت، ط6 (دت) ج1، ص 193.

و من الإنسان تأتي الممارسة التأويلية مع الشخصيات و المدركات من العلامات و الرموز والنصوص (إذا فسر و دبره و قدره)، و هو مطالب بالتحول و التغير ليستمر في حياته و كذلك التأويل ، و لابد أن يكون في نظام اجتماعي يصلح شأنه و شؤون الناس و كذلك التأويل (ألنا وإيل علينا).

و يمكن للباحث أن يلحظ من خلال تعدد معاني لفظة التأويل اختلاف الاستعمال الاجتماعي و تنامي دلالاته الوظيفية، وأنه مصطلح متطور الدلالة يكتسب معناه من خلال السياقات اللغوية و الاجتماعية، و يشكل البنية المعرفية التي تؤسس لمعنى متلائم و متنام و متراكم التحديد الاصطلاحي .

2- الهرمينوطيقا في الفكر الغربي القديم

التأويلية أو الهرمينوطيقا (herméneutique) مصطلح غربي قديم عرف عند اليونان القدامى، وجاء نسبة إلى (hermès¹) ، الإله الذي اكتشف اللغة والكتابة فزود البشر بهذه الوسيلة التخاطبية التي أعانته على فهم الكلام وتوصيله، ولذلك نجد بعض الكتاب ترجم الهرمينوطيقا مباشرة إلى مصطلح (الهرموسية) ويعتبرها ذات منبع إغريقي².

وكلمة هرمينوطيقا مشتقة من الكلمة اليونانية (hermès) وتعني القول، التعبير، التفسير، وقد اشتقت من هذه الكلمات فروعاً أخرى هي : المعلن (Hermeneus) والمفسر (Herméneute)، أما مصطلح فن التأويل فقد عبرت

¹ وهو احد آلهة اليونان تنسب إليه الكتابة وقيل هو الإله الذي يتوسط بين الآلهة والناس ليحصل لهم الفهم والإدراك ينظر: الفهم والنص، بومدين بوزيد [دم، ج] ، الجزائر ، 1429هـ-2008م، ص13

² سير وارت التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، سعيد بنكراد، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، ط1، 1433هـ-2012م، ص29

عنه الكلمة (Herménotiké)، التي قد تعني في أصلها الكلام، القول، بينما تعني كلمة (Hermeineia) القدرة على التعبير، أو القدرة على التفسير¹.

ويؤكد حامد أبو زيد على أن مصطلح الهرمينوطيقا (مصطلح قديم بدأ استعماله في دوائر الدراسات اللاهوتية ليشير إلى جملة من القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني²) الذي شكل مناخا خصبا لتوالد التأويلات المختلفة. وحرر الدلالة من سجن أحادية المعنى وثباته، وفتح أفقا رحبا للتأويل والتفويل وانفتاح المعنى وتناسله.

إن موضوع التأويلية قد عرفه الفكر الغربي منذ القديم، وتناوله الفلاسفة الأوائل منذ سقراط (399 ق.م)، وكذا أرسطو طاليس (384 ق.م)، ثم أعيد إحيائه في عصر النهضة من قبل شلايماخر، وديلتاي، وإدموند هوسرل، ومارتن هايدجر، وغادامير وغيرهم كما سيأتي.

وقد ارتبط مفهوم التأويلية منذ أمد بعيد بالنصوص الدينية والفلسفية، وخاصة نص العهد القديم (التوراة)، الأمر الذي دفع أهل الاختصاص، للقول بأن هذا المصطلح مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمصطلحات الفلسفية والآليات الإجرائية لتأويل وتفسير النصوص التي لا تمت للنص الأدبي بصلة³.

لقد اعتنى مفكرو اليونان بالآداب عندما ازدهرت عندهم الفنون وأنزلوها مقاماً كبيراً، وقد رأوا أنه عبارة عن محاكاة للطبيعة، يرتفع من المحدود الضيق إلى المطلق الرحب، ومن الخاص إلى العام، ويتكلم بما يتكلم به الفلاسفة، حتى

¹ ينظر: سير وارت التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، المرجع السابق، ص 30

² إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص13، وينظر مقالة: الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص، مجلة فصول، المجلد

الأول، العدد3، إبريل 1981، ص141

³ التأويلية من الرواية إلى الدراية، مختار لزعر، ديوان المطبوعات الجزائرية- المطبعة الجهوية وهران، الجزائر [د

ط]، 2007م، ص15

وقع بين هؤلاء المفكرين خلاف حول نشأة العمل الفني والأثر الأدبي حتى تواطؤوا على نسبته إلى المحاكاة¹.

لقد اهتم السفسطائيون بالحديث عن المعنى وفهمه وإدراكه شرحاً وتأويلاً وتقويلاً، وكانوا ينظرون إليه كشيء مرتبط بالوجود، ويوصون بالتأكيد على وضع قوانين عامة تفسر وتؤول الوجود، ولا تضع الأشياء بشكل امثالي.

تعتقد المدرسة السفسطائية على لسان «بروتاغوراس»² أن الإدراك الحسي للأشياء هو أصل المعرفة، والمقصود بذلك الحواس الذاتية الفردية، وقد سبقوا غيرهم في تقديس الحواس والشك في مقدراتها على إدراك الحقيقة، فهي لا تعطينا الحقيقة بموضوع مستقل.

وكان بروتاغوراس السفسطائي ينطلق من مقولته الشهيرة التي تجعل الإبصار معياراً لكل شيء، أي أنه يدرك الأشياء من خلال أحواله الخاصة، ومن ذلك الجمال، فهو نسبي، بالنظر لتغير الأذواق والفهم لكل فرد³.

ونشطت لدى السفسطائيين فلسفتهم الإقناعية، ووظفوها في التأويل والخطابة، وركزوا على الأخيرة أكثر، لأنها تتساند بالحجاج (argumentation) والإقناع، واعتمدوا مبدأ الاستجابة لإغراء القارئ واستعانوا بالبلاغة الصناعية للتأثير عليه بجذبه وإقناعه حتى يمارس العملية التأويلية لفهم المعنى⁴.

¹ من جماليات النشأة إلى جماليات التقبل، حسين الواد، مجلة فصول المجلد 5، العدد الأول [أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر]، 1984م، ص 10

² بروتاغوراس: (Protagoras) (410-485 ف-م): فيلسوف يوناني يعتبر زعيم السفسطائية وأشهرهم قال « إن الإنسان هو مقياس كل شيء» من أجل ذلك عُدَّ أول الإنسانيين، نفي من أتينا عام 415 قبل الميلاد. ينظر أعلام المورد، ص 47.

³ مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم، علي بخوش مجلة المخبر: أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب العربي، جامعة بسكرة العدد الثالث، ص 142

⁴ المرجع نفسه، ص 143

إن فكرة التأويلية غالباً ما تتداخل وتتلاحم بدون شروط مع فكرة التأويلي، غير أنها تنفرد من حلقة التأويل البسيطة والعادية، أي أنها تبتغي الوصول إلى ترسيم نظرية مكتملة، تسعى إلى إيجاد وظيفة تفسيرية لحقوق الإيمان والاعتقاد والظاهرة الدينية منذ عرفت البشرية الدين.

إن العقل البشري عندما يريد دراسة النصوص المسيحية، فإنه من غير شك يتواصل مع الحياة الخاصة للمسيح عيسى عليه السلام، ويتعامل مع الجوانب التأويلية التي مارستها الأجيال التي عاشت المسيح عيسى في لحظاته الأولى، ثم واصلت الدرب تقرأ النصوص وتؤولها تأويلاً يساير الزمن ويراعي حركية الحياة¹.

لقد عاش المسيح في بيئة يهودية محافظة يستلهم منها ثقافته، متمثلاً للعرف الاجتماعي السائد، ذلك لأن الشعب اليهودي في زمن المسيح، وكما هو عليه اليوم، يمزج الدين بالعرق والنسب، وينتصر للسلالة على حساب الفكرة والإيمان.

في الديانة المسيحية ثلاثة محاور أساسية: إحداها الواقع الاجتماعي الذي عاش فيه المسيح، وتلك الآراء المختلفة والمتنوعة التي ظهرت في تيارات فكرية تنتج خطاباً مغايراً في النظرية من حيث النص والوجود، أما المحور الثاني فهو أهم الخصائص التي ميزت دعوة المسيح وبشائره، والمحور الأخير هو نشأة العقيدة الإيمانية وتطورها على أرضية لها وشائج مثبتة بالجانب التولوجي (الإيماني) الذي يتأسس على البعد التأويلي².

في ظل الأجواء السكونية للعهد القديم برزت طبقة يسمون الكتبة، أي فقهاء الشرع، وأبرز من درس الكتاب المقدس وشرحه يتوقف عند بعض المشكلات الثانوية والبسيطة، وقد أثارت النظريات اليونانية جملة من المقالات

¹ التأويلية من الرواية إلى الدراية، ص 21

² التأويلية من الرواية إلى الدراية، ص 21

الفكرية حول الإله والكون والوجود على المستويين الإنساني والكوني، حيث ظهرت عدة فرق تحاول تحريك الجانب التأويلي في المحتوى النصي للكتاب المقدس، فكانت فرقة الصدوقيين (sadducéens)، وهي فرقة ارتدادية مسيحية عارضوا حتى المسيح في محاولاته التأملية والنظرية¹.

كما ظهرت فرقة الفريسيين (pharixéens)، وهم لم يكونوا محافظين ومنغلقين كالصدوقيين، ولذلك ظهرت بأشكالهم التعبدية والشعائرية والإيمانية، ولاسيما الإيمان بالبعث كحقيقة رعتها الجماعة المحافظة (الصدوقيين).

وقد مارست تلك الفرق الوظيفية التأويلية في ممارسة الشعائر الدينية وتهيئة الأجور لميلاد وظهور المخلص على غرار فرقة الغيوريين (zalates)، الذين رفضوا أوامر السياسة، واحتكموا لأوامر دينهم انتظاراً للوعد².

أما الفرقة الرؤيوية (Apocalyptique): الذين امتلكوا الرأي - وان بدا كفراً- القائم على فك الرموز ومعرفة الأسرار والحكم الإلهية الموجودة في كل كائن حي، خصوصاً بعدما رأوا موجه الخرافة والأسطورة مع الظواهر الطبيعية وعلم الفلك³.

3- التأويلية في الفكر الغربي المعاصر:

أ-شلامايخر: تبدأ التأويلية في الفكر الغربي الحديث مع المفكر الألماني شلامايخر (Schleiermacher) (ت1843م) وهو يجسد الموقف الكلاسيكي للهرمينوطيقا، ويعود إليه انتقال دورة المصطلح من الوسط اللاهوتي إلى ميدان العلوم الإنسانية، ليكون «أداة» و «فنّاً» يستخدم آلية إجرائية لعملية الفهم

¹ المرجع نفسه، ص23- 24

² المرجع نفسه، ص25

³ التأويلية من الرواية إلى الدراية، ص26

وتحليل النصوص، أو بمعنى آخر نقله من دائرة اللاهوت إلى دائرة الناسوت، لكي يطرد الثاني الأول على حد تعبير علي حرب¹.

- لقد ركز شلا ما يخر على جانبيين هما : الموضوعي والذاتي أو اللغوي والنفسي، وهما يشكلان القواعد الأساسية لفن التأويل عنده².

وقد أسهم شلاماخر إسهاما بارزاً في تمهيد الطريق لتطوير الهرمينوطيقا، حيث وظف كل الاتجاهات والأفكار القديمة كما وضح، في نفس الوقت، المعالم الكبرى لانطلاقة جديدة، ويعود له الفضل في إرساء هرمينوطيقا القرن العشرين، المتمثلة في منهج فقه اللغة (الفيلولوجيا) والمنهج التاريخي، وكما ألفت أفكاره بظلالها على فلسفة القرن العشرين، حتى أزمنة الحداثة وما بعدها، ولكن كل ذلك الاحتراف بشلاماخر يعود إلى مقولات ديلتاي بخصوص هرمينوطيقا شلا ما يخر في مقالته حول أصل الهرمينوطيقا³.

إن شلاماخر لم ينتج فكرة التأويل من فراغ، حيث ساعدته الحركة الرومانسية المبكرة على ثورة ثقافية في حياة أوربا الوسطى للمدة من 1795 إلى 1830، وعملت الأفكار الفلسفية من مثال فخته (fichte)، وسيلنغ (schelling)، وشعراء من أمثال نوفاليس (nérolis)، وتيك (tick)، وفاكنرودر (wackenrodzr)، على فتح آفاق جديدة للفكر التأويلي استفاد منه شلا ما يخر والهرمينوطيقا التي أصبحت معنية بفكرة المؤلف بوصفة مبدعاً والأثر الفني بوصفه تعبيراً عن ذاته الإبداعية⁴.

¹ الممنوع والممنوع، علي حرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005م، ص56

² إشكالية القراءة وآليات التأويل، ص22

³ عصر الهرمينوطيقا أبحاث في التأويل، خالدة حامد، منشورات الحمل، بيروت، [د ط]، 2004م، ص27

⁴ عصر الهرمينوطيقا أبحاث في التأويل، ص28، 29.

وحاول شلاماخر أن يسند وظيفة الهرمينوطيقا إلى قطبية الفهم، أي أن الفهم هو الأرضية الأساسية والخصبة للنظرية التأويلية، ورأى شلاماخر أن التأويلية لم تعد معنية فقط بفك الشفرة، أو نزع العقبات من طريق الفهم السليم، إنما صارت ملزمة بإضافة الشروط اللازمة لعملية الفهم وآليات التأويل ومجالاته، وإذا كانت الهرمينوطيقا القديمة قدمت القارئ بوصفه متلقياً خبيراً وفاهماً للنصوص، وأخرجه من العام إلى الخاص، ومن المطلق إلى فهم نسبي وغير نهائي¹، ويكون بذلك قد حرر التأويل من الدغمائية والإطلاقية، ونقله إلى مجال رحب من الفكر الإنساني.

لقد استطاعت الهرمينوطيقا في نظر شلاماخر، أن تفرق بين مستويات الفهم والإدراك، كما فرت في الوقت ذاته بين مستويات الشرح اللغوي، والتي بدورها ترتكز على مستويات ثلاثة: هي الكلمات، المعنى، وروح العصر، وهذا الأخير صار بشكل تدريجي ينفصل عن اهتمامه ليسلك مساراً آخر في ذهنية شلاماخر، انطلاقاً من اختلاف المتلقي للغة والكلام².

وبالرغم من النقلة الكبيرة للهرمينوطيقا في مفهوم شلاماخر لتكون فناً مستقلاً بذاته، فإنه تمظهر ببعض السلوكات الكلاسيكية، عندما طالب بوضع قوانين ومعايير لعملية الفهم، ومن ثم لعملية تفسير وتأويل النصوص، وذلك لأنه أراد أن يقلص من هوامش « سوء الفهم » في كل عملية تأويلية .

لقد حاول أن يجعل المفسر منفصلاً عن ذاته وأفق التاريخي الراهن لكي يفهم النص فهماً تاريخياً، بمعنى أن المفسر - حسب - يساوي نفسه مع المؤلف ليحل مقامه وفق إعادة البناء الذاتي والموضوعي لتجربة المؤلف من خلال

¹ المرجع نفسه ، ص30.

² التأويلية من الرواية إلى الدراية، ص 44، 43.

النص، وبالرغم من عدم المساواة من الجانب المعرفي فإنه يعتبره الأمر الأساسي للفهم الصحيح¹.

إن الجديد والحاسم الذي جاء به شلاماير ليس التحول نحو إستراتيجية الفهم وحدها، بل فسحة التأويل اللساني له، وفي نظره أن عملية الفهم ذات فعالية تماثل فعالية الكلام، فهما في العملية التواصلية القائمة على اللغة وإجادة الكلام متكاملان، وعملية الفهم تنتج من خلال القدرات اللسانية التي تنتج أفعال الكلام وأفعال الفهم².

ب- ويلهام ديلثاي (1833-1911) : لقد حاول ديلثاي إدخال التأويلية كمنهج للعلوم الإنسانية والاجتماعية، يختلف عن المنهج العلمي التجريبي، وعمل على وضع تقنية جديدة للفهم وقواعد التأويل محاولاً مساواة مناهج العلوم الطبيعية في التقعيد والصرامة (علماً أن الحظ لم يحالفه بسبب ظهور بعض الفروع المتخصصة ونموها الزائد وسيطرة المذاهب الأسلوبية واختلالها من التأويل)³.

انتقد ديلثاي العقل التاريخي بوصفه يدرس ويقيم الظاهرة التاريخية دون أن يحلل حقائق الوعي، ومنها فهو لا يؤسس نتائج على المعرفة، أي بمعنى ليست للمعرفة التاريخية بعداً فلسفياً، ومن هنا فقد اعتبر ديلثاي المقارنة التاريخية تجربة فاشلة في تطوير آليات منتهجها.

إن الأساس المعرفي عند ديلثاي يتحدد من خلال الإدراك بأن كل معرفة قائمة على التجربة، غير أن الوحدة الأساسية للتجربة وما تفرزه من نتائج يتوقف على العوامل التي تشكل الوعي وما ينشأ عنه، بمعنى أنها محكومة بالطبيعة

¹ إشكالية القراءات وآليات التأويل.

² عصر الهرمينوطيقا أبحاث في التأويل، ص 31.

³ التأويل والهرمينوطيقا دراسات في آليات القراءة والتفسير، مجموعة من المؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط 1، 2011م، ص 176.

الإنسانية الشاملة، ومن ثم فالتجربة عند ديلثاي ملتصقة مباشرة بمفهوم التجربة المعيشة، تتماهى تماماً مع عمليات الإدراك الحسي، ولم يمنحها مفهوم أنه عبارة عن موضوع للتأمل العقلي¹.

ويرى ديلثاي أن الفهم بوصفه مفهوماً منهجياً، له جذوره العميقة في سيرورة الحياة الإنسانية وضرورة ربطها أساساً ب(مقولة الحياة)، وهي تعني عند ديلثاي أن يجد الناس أنفسهم في حياتهم اليومية حسب مواقف تفرض عليهم « فهم» ما يجري حولهم، حتى يبادروا لفعلهم أو رد فعلهم تبعاً، من أجل ذلك فإن السلوك اليومي يعكس فهمهم الحي وتفهمهم للبيئة الاجتماعية والثقافية التي يعيشون فيها².

ولكي ندرك مجالات مفهوم التأويل عند ديلثاي، يتوجب علينا فحصه ضمن السياق الذي ورد فيه، فهو يرى أن الشيء الذي نفهمه نحن، من منطلقاتنا البشرية وحتى نتائج علماء الإنترولوجيا، هي كلها مظهر للحياة الإنسانية أي التعبير عن الحياة، إلا أن الفهم ذاته هو واحد من مظاهر الحياة .

فأفعال الفهم مظاهر نعيشها ونمارسها نحن، وهي تشكل (الخبرة المعيشية عند ديلثاي) ويعمل مفهوم الخبرة المعيشية أساساً أوسط في نظام مصدره³.

لقد استند ديلثاي في آرائه على تبين الحوادث الطبيعية التي توظف القوانين الكلية، عكس المؤرخ الذي سعى وراء فهم أفعال صانعي الأحداث، للوصول إلى الكشف عن النوايا والآمال وضياح الشخصيات عن طريق فهم أفعالهم، وفي نظرية ديلثاي فإن هذه الأفعال قابلة للفهم بوصفها بشرية، حيث

¹ إشكاليات القراءات وآليات التأويل، ص 25.

² عصر الهرمينوطيقا: أبحاث في التأويل، ص 60

³ المرجع نفسه، ص 61.

التفهم يساوي « اكتشاف الأنا في الأنت » وهذا يمكن قبوله بدليل الماهية البشرية العامة.¹

ومن حقنا التساؤل : كيف تتحول التجربة الذاتية عند الآخر الذي نسعى لفهمه أو نسعى لفهم أنفسنا من خلاله، إلى موضوع؟. يرى ديلثاي إن ذلك يتم خلال عملية التعبير سواء أكان في نص ملفوظ أم سلوكيات اجتماعية، فهو الذي يعطي للتجربة موضوعيتها، حيث يحولها من الحالة الذاتية إلى الحالة الموضوعية التي يمكن المشاركة فيها.²

لقد رفض ديلثاي فكرة المعنى الثابت سواء كان ذلك في العمل الأدبي أو الحدث التاريخي؛ لأن المعنى يتأسس على جملة من العلاقات، في العمل الأدبي تبدأ في لحظة زمنية معينة، تحدد المعنى المحين في تلك اللحظة الزمنية، ولكن تجربتنا معرضة للتغيير والتبديل مع الآفاق الجديدة من الاحتمالات التي توفر لنا العمل، مما قد يتغير فهمنا للعمل نفسه، ونبقى ندور في دائرة تأويلية محضة.³

من بين المفاهيم التي كرسها ديلثاي الأفق الراهن أي تجربة الحياة للمفسر، ووسع من دوره في العملية التواصلية، وأقصى ذاتية المبدع وقصديته عندما شدد على التركيز في النص على التجربة الحية والمعيشة للقارئ المسلح بمفاهيم مستمدة من التاريخ، لإحراز عملية الفهم، ويكون بذلك قد مهد الطريق للفلاسفة الذين جاءوا بعده.

ويكفي ديلثاي في إطار فلسفته التأكيد على أن تفسير العمل الأدبي عملية من التفاعل الخلاق بين النص وأفق المتلقي، يفتح فيه أفق القارئ لمجالات

¹ التأويل والهرمينوطيقا، مجموعة من المؤلفين، ص 177.

² إشكاليات القراءات وآليات التأويل، ص 26

³ المرجع نفسه، ص 29

من التجربة كانت مسدودة قبله، وذلك يوفر للنص سلسلة من المفاهيم الجديدة التأثير وتجعل تجربته عميقة.¹

لقد فتحت أفكار ديلثاي المركزة على ضرورة فتح النص على تجربة المفسر في عملية الفهم وترك الباب مفتوحاً أمام من جاء بعده، ولاسيما فيبرو ومارتن هايدغر وجادامير، وأسهم في بلورة معالم النظرية التأويلية المعاصرة.

ج- سيغموند فرويد² (1856-1939): يعتبر فرويد أحد الفلاسفة الغربيين الذين أسهموا في تطوير العقل الأوروبي الحديث والمعاصر، وقد كان لنظرياته النفسية الأثر الأكبر في القرن التاسع عشر، خصوصاً في نظريته حول اللاوعي التي تفسر سلوك البشر وأنماطهم، على أساس القوى الروحية غير الواعية، والتي جعلها تتحكم في الوعي الإنساني وتبرز في الرؤى والأحلام وزلات اللسان، وكما تتضح وتتجلى في النصوص.

إن المفسر في نظر فرويد يحمل آلية خاصة به لفتح النص، وهو يوظفها لفهم المعاني اللاواعية والغريزية والقناعات المكبوتة فيه التي تمنع حصول صفة معينة من المظاهر الحياتية، على نحو أكثر علمية، والتفسير العلمي -حسبه- هو الذي يفتح النصوص المقلدة.³

د- مارتن هايدغر (1889-1976): أما مارتن هايدغر صاحب كتاب (الوجود والزمان) فقد كان متأثراً بآراء ديلثاي، ورفض منطلقات هوسرل حول

¹ المرجع نفسه، ص 30

² فرويد احد فلاسفة الحضارة الغربية (1856-1939).

³ التأويل والهرمينوطيقا، مجموعة من المؤلفين ص 178

الذات المتعالية في الفهم، وركز على نقطة أخرى هي «تعيين» الوجود الإنساني غير القابل للاختزال أو (dasein)¹

إن التأويل ازدهر بعد أن نظره ديلثاي في أول دراسة له حول (محاولة في فن التأويل) ثم تطور في مدرسة الأشكال الأدبية في أوائل القرن العشرين، وبالضبط مع بولتمان وديلبليوس، وفي أواخر العشرينيات من القرن الماضي أصبح جزءاً من تحليل الوجود الإنساني عند مارتن هايدجر ثم طبقه جادامير في التجربة الجمالية، وعمل كاسيزر على استثماره في الأشكال الرمزية، وحفظه بول ريكور في الأساطير القديمة.²

هـ- الفيلسوف الألماني هانس جورج جادامير (Hans George

gardâmes): لقد أثار قضية الهرمينوطيقا من جديد في ألمانيا بواسطة كتابه الشهير (المنهج والحقيقة) (méthode et la vérité)، والذي نشره في سنة 1960م، واستطاع أن يحرك المشهد الفلسفي الخاص به، ويثير كتابه الآراء حول الموقف من العلم والمنهج والحقيقة في الدراسات الإنسانية، حيث ربط التأويل بعلم الإنسان وعدم قصوره على أحد، وجعل الرهان الحقيقي يتوقف على بلورة منهجية لقراءة النصوص، من خلال تحديد المفاهيم والمنطقات للوصول إلى الحقائق.³

إن الفهم عند جادامير هو عملية ترابطية دائرية تتداخل فيها الآفاق، وليست عملية خطية أفقية أحادية الاتجاه، وأطلق عليه مصطلح (اندماج الآفاق) (fusion d'hrizan)، حيث تتأسس عملية الفهم كلية في إطار الانصهار بين الماضي والحاضر.

¹الذراين (dasein) كلمة ألمانية معناها الوجود الحاضر أو الوجود المقابل للوجود، وهي عند هايدجر تعني كينونة الوجود الإنساني أو كيفية وجوده، ينظر: إشكالية الوجود والتقنية عند هايدجر، إبراهيم أحمد، المؤسسة الخاصة، الجزائر، ط1، 2006م، ص44.

² حصار الزمن (الإشكالات)، حسن حنفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م، ج1، ص 63 .

³ من النسق إلى الذات، عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م، ص 156 .

ومن خلال هذه الموازنة والتقييم يصل المتلقي إلى صياغة أفق جديدة (un nouvel horizon) يشكل في النهاية ثمرة بين اندماج الماضي في الحاضر¹.

وعندما انتقل التأويل من دائرة اللاهوت إلى دائرة أرحب هي دائرة الناسوت، كان ذلك، -حسب جادامير - بداية لما أسماه "ميلاد الشعور التاريخي"².

لقد انتقد جادامير فكرة "الوعي التاريخي" التي تقوم على أساس منهجي قوامه التخلص من النوازع والأهواء الذاتية لتجربتنا، بل على العكس من ذلك، حيث شدد على أن هذه النوازع والأهواء هي التي تؤثّر موقفنا الوجودي الراهن الذي يعطي شرارة الانطلاقة لفهم أزمنة الماضي وأزمنة الحاضر³.

وهو بهذا يعطي للمتلقي دورا في تفسير النصوص وفهمها وتوظيف تجربته في ملامسة الأثر الاستيطقي (l'effet esthétique) الذي لا ينصب على الشكل فقط، ولكنها عملية مشاركة وجودية تقوم على الجدل بين المتلقي والعمل للحصول على جمالية التلقي بين النص والقارئ⁴، إنها تفتح عالما جديدا . كما تفتح أمامنا أفق العالم المثالي، وتحملنا على فهم القارئ لنفسه في ذات الوقت⁵.

وضمن الفكر الغربي هناك تيار معاكس تماما لآراء هيدغر وجادامير وهابرماس وإبل، آراء تجعل من الهرمينوطيقا وسيلة من الوسائل التي يمكن أن

¹ هومينوطيقا النص الأدبي في الفكر الغربي المعاصر، ملكية دحمانيّة، مصدر سابق، ص 28 .

² من النسق إلى الذات، عمر مهيبيل، ص 159 .

³ إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص 41 .

⁴ Hans Robert jeous, pour une esthétique de la réception.trd: Cland MAILARD,ed:

gollimard,Paris,1978,p15

⁵ إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص 39 .

تتخذ الإنسان من نسيان الكينونة في عالم تلتهمه التقنية، فإن فاتيما مثلا يولي اهتماما كبيرا بميدان العلم والرحب ويمنحه بعدا مزدوجا، حيث لم تصبح التأويلية وسيلة لفصح وتعرية التقنية، بل أصبحت غاية مأمولة، لأنها تعد سليفة وقريبة من هذه التقنية في ترسيخ نسبة العدمية .

في ظل هذا الفهم الجزئي والمتجاوز لأفق الآراء المروجة لعصر الهرمينوطيقا، يتوجب علينا فهم الثقافة كضرب من ضروب التأويل، وفق مقولة جدلية بين المغلق والمفتوح، بحيث تصير عملية الفهم للغة وخطاب الآخر ذات أبعاد نسبية تحددها الأنا المؤولة¹ .

و- بول ريكور: يطرح إيكو في البداية منهاجا يطلق عليه مصطلح فينومينولوجيا² الشعريات، واختار موضوعا يتناسب مع الآثار والأعمال المفتوحة، ليؤكد على أن منهجه إطلاقي ومتعال على الزمان والمكان، وحسب إيكو فإن مفهوم ومقولة الانفتاح لم تصل إلى الحيز النظري المناسب إلا مع انبثاق المذهب الرمزي وانحاء المذهب الرومانسي، حيث يرجع ذلك الاهتمام الذي عناه مالا رميه للانهاية التأويل والدلالة باقتراحه لمفهوم البياض داخل الفضاء النصي المنتظم على الورقة.³

يعتبر كتاب "القارئ في الحكاية" الذي ألفه أمبرتو إيكو سنة 1979- وتمت ترجمته إلى الفرنسية سنة 1985م- من أهم الكتب التي تناولت

¹ حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو، وحيد بن بوعزيز، الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429هـ/2008م، ص 20. وينظر للتوسع: Eco UMBERTO, Trd: par M. fasquelle, 1992 Bouzahr, ed:grasset et

² الفينومينولوجيا: (الظاهراتية)، "هي الدراسة الوصفية للظواهر كما تبدو لنا، وأنها تعني العودة إلى الأشياء ذاتها، وأن الظواهر كلها غير عبثية أو عفوية" ينظر: المنعرج الهرمينوطيقي للفينو مينولوجيا، جان غراندين، تر عمر

مهيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م، ص 10

³ حدود التأويل، المرجع نفسه، ص 26 .

الجانب التأويلي للنصوص والكيفية الدينامية التي عن طريقها يمكن اعتبار المتلقي في الإطار العام ركيزة أساسية في عملية إنتاج الدلالة.

ورغم اعتراف إيكو بأنه لم يصل لحد يقين يؤدي به إلى صياغة قوانين صارمة للانفتاح-كما في كتابه الأثر المفتوح- فإنه يحدد في كتاب (القارئ في الحكاية) أمله في التطلع لمعرفة الدينامية التأويلية من منظور التعضيد النصي الذي يقوم به القارئ في فتح مستغلقات النص والإسهام في عملية إنتاجه وبناءه¹.

أما مشروع بول ريكور فإنه يتأسس على رؤية تحتفظ بالتأويلية قائمة على بعدين اثنين، هما البعد الذاتي من حيث الوظيفة الإنسانية، وعلى البعد الموضوعي في وظيفة الهوية ثانياً، وذلك -حسب رأيه- لأنه لا يمكن تحقيقه إلا من خلال فلسفة في الخطاب تحرر التأويلية من أهوائها النفسانية والوجودية².

إن محاولة ريكور تكمن في الاستدعاء لدائرة السؤال وطرح فرضيات التأويلية من جهة نظر فلسفة الخطاب، سعياً لتحرير التأويلية من الانحيازات النفسية أو الوجودية، وهو لا يحاول أن يصبو إلى وضع التأويلية القائمة على مقولة الواقعة الكلامية في تناقض مع تأويلية لن تكون سوى نقيض لها، بما أنها تقوم على تحاليل نفسية بنيوية للمحتوى الخبري للنصوص.

ومآل سوء الفهم المزدوج لجدل الواقعة والمعنى في الخطاب، وجدل المغزى والإحالة في المعنى نفسه، حيث يؤدي سوء الفهم ذو الشقين هذا بدوره إلى إسناد مهمة مغلوطة للتأويل، ومهمة يترجمها المقال الشهير (نفهم المؤلف

¹ حدود التأويل، ص 30 .

² نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ترجمة، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط2، 2006م، ص 15 .

بأفضل مما فهم نفسه) ، ويكون الرهان على التعريف الصحيح للوظيفة التأويلية¹

خاتمة

- إن التأويلية في اللغة متعددة المعاني، كثيرة الدلالات المعجمية، وأنها تطورت وفق السيرة الزمنية والسيرورة التاريخية، حيث دخلت ميادين كثيرة لاسيما في العلوم الإنسانية، وصارت آلية من آليات القراءة المعاصرة، كما أن التأويلية ثقافة عرفت جميع الديانات والحضارات والأمم، وتعد شكلا من أشكال القراءة خصوصا إذا سلك طريق الإقناع والحجة والبرهان العقلي أو اللغوي.

- إن التأويلية وإن بدأت مع شلامايخر في العصر الحديث بالبحث عن المعايير والقوانين في فهم وتفسير الخطاب المسيحي، وانتهت إلى وضع نظرية معاصرة في مقارنة النصوص الأدبية والإنسانية مع جادامير، فإنها عرفت أيضا منتقدين لها بالنظر لانطلاقاتها وانفتاحاتها اللامتناهية خصوصا أسئلة إمبرتو إيكو، ومع ذلك يسجل لها فتح آفاق القراءة الواعية والمفتوحة والتحويل نحو دينامية المؤول في قراءة النص وإعادة بنائه من طرف المتلقي، الذي تحول إلى مركز وصاحب سلطة يمارس حق الإسناد وإبداء الرأي في مفهومية النص ودلالاته .

- بدأت التأويلية بالفكر الغربي بالأسطورة المرتبطة بالآلهة ومرت بتحويلات إيستمولوحية، ولكنها في كل مرحلة من مراحلها كانت ترتبط بنوع من التحليل غير العادي وغير الامتثالي للكتب المقدسة خصوصا مع شلامايخر الألماني، ثم انتهت إلى نظرية ومنهج متبع في معالجة النصوص والخطابات بأنواعها المختلفة تتسلح بوعي المتلقي وأفق المعرفة.

¹ نظرية التأويل ، ص ص 53 ، 54 .

- لقد كان للفلسفة الألمانية دور كبير في طرح بدائل إبستمولوجية لأزمة المناهج النقدية التي تتغىي تحليل الخطاب ومحاولة فهم النصوص، سواء أكانت عامة، أم تلك التي تخص الظاهرة الأدبية.

قائمة المصادر والمراجع

- 1 إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبوزيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م.
- 2 إشكالية الوجود والتقنية عند هايدجر، إبراهيم أحمد، المؤسسة الخاصة، الجزائر، ط1، 2006م.
- 3 التأويل والهرمينوطيقا دراسات في آليات القراءة والتفسير، مجموعة من المؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 2011م.
- 4 التأويلية من الرواية إلى الدراية، مختار لزعر، ديوان المطبوعات الجزائرية- المطبعة الجهوية وهران، الجزائر [د ط]، 2007م .
- 5 حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو، وحيد بن بوغزيز، الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429هـ/2008م، ص 20 .
- 6 حصار الزمن (الإشكالات)، حسن حنفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م.
- 7 سير وارت التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، سعيد ينكراد، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، ط1، 1433هـ-2012م.
- 8 عصر الهرمينوطيقا أبحاث في التأويل، خالدة حامد، منشورات الحمل، بيروت، [د ط]، 2004م.
- 9 الفهم والنص، بومدين بوزيد [د،م،ج] ، الجزائر ، 1429هـ-2008م.

- 10 لسان العرب، أبو الفضل جال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت، ط6 (دت) ج1.
- 11 الممنوع والممتنع، علي حرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005م،
- 12 المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، جان غراندن، تر عمر مهيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م.
- 13 من النسق إلى الذات، عمر مهيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م.
- 14 نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعني، بول ريكور، ترجمة، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط2، 2006م.

المجلات

- 15 مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم، علي بخوش مجلة المخبر: أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب العربي، جامعة بسكرة العدد الثالث.
- 16 من جماليات النشأة إلى جماليات التقبل، حسين الواد، مجلة فصول المجلد5، العدد الأول [أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر]، 1984م.
- 17 الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص، نصر حامد أبو زيد، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، إبريل، 1981.

المراجع باللغة الأجنبية

- 18) Les Limites de L'interprétation, Eco Umberto, trd: M. fasquelle et Grasset, 1992, ed: Bouzaher.
- 19) Pour Esthétique de la Réception, Hans Robert Jeous, trd: Cland Gollimmard, Paris, 1978, ed: Mailard.